في مسلسل درامي من إنتاج شركة «رواج» الكويتية:

«خالد بن الوليد» يتجه إلى العالمية مع المخرج محمد عزيزية

دمشق «القدس العربي»
ـ من أنور بدر:

أعلنت شركة «رواج» للإنتاج الفني عن إطلاق باكورة أعمالها الدرامية، في مؤتمر صحافي بقاعة الأمويين من فندق «الشام»، وهو عمل تاريخي ملحمي كما عرفت به بعنوان «خالد بن الوليد سيف الله المسلول»، وأضاف السيد مشاري المطوع من الشركة المنتجة أنهم رصدوا ميزانية ضخمة للإنتاج بهدف الوصول إلى العالمية إن أمكن أو محاولة تعريف الآخر بأنفسنا. مؤكداً أن الدراما التاريخية السورية دراما متميزة ورائدة في هذا المجال، لتوفر العناصر الفنية الملائمة لتقديمها، إضافة لوجود مخرجين متميزين، وكتاب استطاعوا بحرفية عالية كتابة نصوص درامية تاريخية واضحة المعالم والرؤى.

هذا المسلسل يتألف من جزأين كل منهما (30) حلقة، وهو من تأليف الروائي والسيناريست عبد الكريم ناصيف الذي قدم أعمالاً هامة للدراما السورية، والهدف من هذه الإطالة تقليل تكاليف الإنتاج من جهة، والاحاطة بشخصية ابن الوليد منذ ولادته وحتى وفاته، مع التعرض لقصته مع الإسلام وفتوحاته العسكرية، إضافة للحديث عن شخصيته والظروف التي عبر من خلالها ضمن أحداث درامية مؤثرة.

وقد بنت الشركة المنتجة مدينة شبيهة بمكة المكرمة في ذلك العصر، وأخرى تشبه المدينة المنورة من بيوت وشعاب وساحات وأصنام وكذلك الكعبة المشرفة لتقديم صورة أقرب للواقع بمعزل عن الغرافيك وخدع الكومبيوتر. كل ذلك قرب مدينة الرقة شمال شرق سورية، حيث أنجز (45) بالمئة من الجزء الأول بتكلفة بلغت حتى الآن خمسة ملايين دولار، وهي ميزانية مفتوحة حسب متطلبات العمل.

المخرج محمد عزيزية الذي قدم أعمالاً تاريخية هامة، كان آخرها «الظاهر بيبرس» وقبله «الحجاج» و«الطريق إلى كابول» تحدث قائلا أن المخرج الراحل مصطفى العقاد عبر مرارا عن رغبته بإنجاز هذا العمل، لكنه اغتيل دون ذلك، متمنياً أن يكون بمستوى طموحات العقاد. كما تحدث عن الصعوبات الفنية والمالية لهذا العمل، خاصة وأن حياة خالد بن الوليد كانت سلسلة من المعارك والحروب التي يجب أن تتمايز إنتاجياً، وهذا مكلف مادياً.

أما حول تعاونه مع الكاتب عبد الكريم ناصيف، فرغم تأكيده على أن أغلب كتاب السيناريو لدينا هم أدباء أولاً، بما يعني الاهتمام بالسرد اللغوي أكثر من الصورة البصرية، إلا أن التعاون بينهما جيد، بحيث قدم الكاتب رؤيته، متيحاً للمخرج أن يقدم رؤيته الإخراجية.

وأضاف بشأن العالمية، أن الكثير من الأعمال التي أنجزت بميزانيات ضخمة فشلت دون ذلك، ورهانه قائم على إعادة المعالجة الدرامية المكتوبة لتحويلها إلى سيناريو بصري، وقال «اعتمدنا على مدير إضاءة بريطاني «فيليب روبنسون» ليعطينا مشهدية سينمائية إن أمكن، كما أننا نصور لأول مرا في سورية بكاميرا (9000 ف) نأمل أن تساعدنا في تقديم ما هو أفضل».

وأجاب بعد عرض «البروموشن» حول تقارب بعض اللقطات مع أجواء العقاد، بأن ذلك غير سليم، وقال «فالعقاد صور منذ (30) سنة وكان شيئاً رائعاً ضمن تقنيات أولية، بينما نحن نعمل بتقنيات أفضل، ولو عاد العقاد الآن لقدم شيئاً متميزاً عما قدمه سابقاً».

أما بخصوص اختياره لباسم ياخور ليؤدي شخصية ابن الوليد، فقال: إن باسم ياخور ممثل مثقف ويجيد النطق باللغة الفصحى، وقد ناسب كشكل أيضاً المواصفات التي نريدها لخالد ابن الوليد، وهو من الممثلين الواعدين في الدراما العربية.

فيما أكد باسم ياخور أن هذه الشخصية مهمة، وأن خالد بن الوليد يدرس في العديد من الأكاديميات العسكرية في العالم، ومن أهم الكتب التي قرأها حول هذه الشخصية كتاب لجنرال باكستاني، ومن أردئها كتاب وزير الدفاع السابق العماد مصطفى طلاس. مضيفاً أننا في هذا العمل نركز على الجانب الإنساني من شخصية ابن الوليد، كيف دخل الإسلام، وعلاقاته الشخصية، دون أن نكرسه كمقاتل فقط. لكنه أكد في معرض رده على سؤال حول الجوانب الواقعية في شخصية خالد ابن الوليد، أنه «لا يجوز لنا تناول شخصية بهذه القداسة والبطولة في مسائل قد تسيء لها، خاصة وأننا نتعرض لهجمة في مقدساتنا، بينما اتجهت الآراء إلى ضرورة تحييد المقدس في مستوى الدراما. فالحقيقة لا تسيء لأحد. مذكرين بعلاقته مع مالك بن نويرة وسواها، بحيث لا ينبغي تقديمه زاهداً في متع الدنيا، لا متعة له إلا الفتوحات». كما قال باسم ياخور.

وفي رد على سؤال لماذا العودة إلى التاريخ، نقل مشاري المطوع عن مصطفى العقاد أن الولايات المتحدة ابتاعت مئات النسخ من فيلمه «الرسالة»، وجرى توزيعه على قادة الجيش والقطعات العسكرية الأمريكية ليتعرفوا الشخصية العربية والمسلمة التي يقاتلونها.

أما باسم ياخور فقال: انه قابل المخرج الأيرلندي ريدلي سكوت، مع زميله غسان مسعود في اختبار للعب شخصية صلاح الدين الأيوبي في فيلم «مملكة السماء»، وقد تم اختيار مسعود لأنه كشكل وحضور يُعطي حالة صلاح الدين السياسي المفاوض، وليس صلاح الدين المقاتل، مُضيفاً أنه «في ذلك الفيلم لم يصوروا معركة «حطين»، لأن أي ضربة سيف في هذه المعركة كانت ستهز مشاعر الأوروبيين. لذلك استعاضوا عن بطولة صلاح الدين بدبلوماسيته، ومن واجبنا نحن أن نصحح لهم رؤية التاريخ، وان نقدم أبطالنا كما هم، وأن نفتخر بفتوحاتنا ومعاركنا المشرفة».

أخيراً أعلن المخرج أن الجزء الأول سينتهي مع نهاية مسيلمة الكذاب، وسيكون جاهزاً للعرض في دورة رمضان القادم، فيما ينطلق الجزء الثاني مع بداية الفتوحات الإسلامية وحتى موت خالد بن الوليد.

هذا وقد شارك في بطولة العمل:

ـ من سورية:

باسم ياخور: خالد بن الوليد.
عبد الرحمن آل رشي: أبو لهب.
عبد الرحمن ابو القاسم: العباس أبو الفضل.
سعد مينة: حمزة بن عبد المطلب.
سوزان نجم الدين: ليلى ـ زوجة خالد بن الوليد.
روعة ياسين: أم سليمان ـ زوجة خالد بن الوليد الأولى.
زيناتي قدسية: مسيلمة الكذاب.
غزوان الصفدي: مالك بن نويرة.
سامر المصري: القعقاع بن عمرو التميمي
فاروق الجمعات: سعد بن أبي وقاص.

ـ من الأردن:

نبيل المشيني: الوليد بن المغيرة.
هشام هنيدي: عم النبي ـ أبو طالب.
صبا مبارك: هند بنت عتبة.

ـ من فلسطين:

تيسير إدريس: أبو سفيان.

ـ من الكويت:

فهد عبد المحيسن: عكرمة بن أبي جهل.
خالد أمين: عمرو بن العاص.

ـ من تونس:

فتحي الهداوي: مالك بن عوف

ـ من العراق:

باسم القهار: أبو عبيدة بن الجراح.
وغيرهم كثر.

لقطة من المسلسل (القدس العربي)

محمد عزيزية (القدس العربي)

باسم ياخور بدور خالد بن الوليد (القدس العربي)

دراسة: العالم العربي يشهد طفرة فضائية ادت الى تغيير الممارسات الاعلامية

الدول العربية لا تزال بعيدة عن الانفتاح وبث المعلومات يخضع للسيطرة الحكومية

ابوظبي ـ «القدس العربي»
ـ من جمال المجايدة:

قالت دارسة صدرت حديثا في ابوظبي ان ظهور بعض القنوات الإخبارية الفضائية الجديدة، مثل قنوات الجزيرة والعربية وأبوظبي ادى الى تغيير الممارسات الإعلامية في المنطقة بدرجات متفاوتة، وبخاصة عبر بث الأخبار الساخنة، وتنظيم الحوارات الحية حول القضايا السياسية والشؤون الراهنة، وعبر إجراء المقابلات الجريئة مع صانعي القرار والشخصيات السياسية.

واوضحت الدارسة التي اصدرها مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية حول الفضائيات العربية والسياسة في الشرق الأوسط للباحث محمد زياني ان العالم العربي يشهد حاليا نوعا من الطفرة الفضائية وما تلا ظهورها من نتائج خاصة على الصعيد السياسي.

وقالت الدارسة ان الشرق الأوسط يشهد الان ثورة معلومات هائلة، وبرزت خلال الأعوام القليلة الماضية محطات تلفزيونية فضائية عربية متنوعة صاحبها زخم إعلامي غير مسبوق. وأسهمت عوامل عديدة في هذا التوسع الملحوظ في البث الفضائي في العالم العربي، ومن هذه العوامل الرئيسية التحول الليبرالي السياسي النسبي، وانتهاج سياسات الخصخصة الاقتصادية، والتحديث التقني الذي شمل ادخال تقنيات وسعت مساحة البث الإعلامي مثل الكابل والألياف البصرية والتقنية الرقمية.

وترتبط المرحلة الحالية في تاريخ الإعلام العربي بالبيئة المنفتحة التي ظهرت بعد نهاية الحرب الباردة وهي بيئة تتسم بالترابط العالمي. وتتضح هذه الحالة في اتساع رقعة اقتصادات السوق الحرة، وبروز الخصخصة كمفهوم محدد في الاقتصادات الوطنية والدولية، وانتشار المعلومات المبنية على التقنية الرقمية. وأدت إعادة الهيكلة العالمية لتدفق المعلومات خلال العقد المنصرم او نحوه الى تعزيز تطور البث الفضائي في المنطقة.

ونقطة التحول التي شكلت دافعاً لهذه التغيرات هي التغطية الحصرية التي قدمتها محطة «سي. ان. ان» لحرب الخليج الثانية عام 1991، إذ ولدت هذه التغطية لدى الشعوب العربية وغيرها احساساً بالقوة الكامنة في وسائل الإعلام، كما دفعت بتطور البث الفضائي في العالم العربي. وفي السنوات التي تلت عام 1991، بدأت القنوات الفضائية العربية بشغل المساحة التي درجت وسائل الإعلام الغربية على ملئها. وتبث الفضائيات العربية برامج متنوعة للمشاهدين العرب الذين أصبحت لديهم رغبة في متابعة برامج أفضل وأخبار تتمتع بقدر أكبر من المصداقية والبعد عن الرقابة الرسمية، وذلك مقارنة بالأخبار والبرامج التي تبثها وسائل الإعلام الحكومية التي تخضع لرقابة صارمة.

وأدى عقد كامل من ظهور المحطات التلفزيونية الفضائية الى افراز قنوات متنوعة في شكل الملكية وطريقة البث ومكانه.

ويضيف زياني: بعد أن أضحت مشروعات البث الفضائي العربية في أوجها، أصبحت الساحة الإعلامية في الشرق الأوسط في حالة نشاط كبير، واتسعت مكوناتها بقدر غير مسبوق. وتزيد الظروف الحالية في العالم العربي من درجة تعقد هذا الوضع، كما أدت الأحداث التي شهدها العالم مؤخراً الى إبراز الأهمية الجيوسياسية للمنطقة، ونقلت الإعلام العربي الى دائرة الاهتمام العالمي.

ومن الواضح أن البث التلفزيوني الفضائي العربي يمتد الى ما وراء الحدود الوطنية، وأن له بعداً إقليمياً. غير أن الأمر الذي لا يزال غير واضح هنا هو التأثير المستقبلي المحتمل لآليات الحراك الجديدة هذه والمتغيرات في الحياة السياسية بالشرق الأوسط والعالم العربي. والأمر الذي يتسم بأهمية خاصة في هذا الجانب ليس البث التلفزيوني الفضائي في حد ذاته، وإنما البعد السياسي للبث التلفزيوني الفضائي، وبخاصة الكيفية والمدى اللذين تؤثر فيهما الأخبار ومناقشة المعلومات والشؤون الراهنة والبرامج الأخرى ذات التوجه السياسي في المنطقة ككل، والكيفية والمدى اللذين تغيرت بهما العلاقة بين الدولة ووسائل الإعلام، وتأثير البث التلفزيوني الفضائي في العلاقات بين الدول العربية وما يسمى «الشارع العربي»، لا سيما أن البث التلفزيوني يوسع مشاركة الطبقات الاجتماعية المختلفة في النقاش العام.

ويشير زياني الى أن المشهد الإعلامي الجديد يعتبر مغايراً تماماً للصورة التقليدية القائمة منذ أمد بعيد والمتمثلة في محطات التلفزة الخاضعة لسيطرة الدولة، إذ ظلت وسائل المعلومات العربية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسياسة، وذلك بسبب أهميتها المفترضة في الحياة السياسية الجماهيرية، كما ظلت وسائل الإعلام لفترة طويلة تعتبر أداة سياسية.

ويضيف: يجب عدم تجاهل الفوارق الدقيقة المصاحبة للمشهد الإعلامي في العالم العربي، إذ طرح وليم رو في ثمانينات القرن العشرين تصنيفاً كلاسيكياً للصحافة العربية، فصنفها الى صحافة التعبئة والصحافة الموالية والصحافة المتنوعة.

وتصنيف وليم رو للإعلام العربي يستند الى حد كبير الى وسائل الإعلام المطبوعة، ولكن يمكن توسيعه ليشمل أشكالاً أخرى من وسائل الإعلام. غير أن هذا التصنيف عفا عليه الزمن، وهذا أقل ما يمكن أن نقوله عنه، إذ يشير تحليله بقدر أكبر الى عصر كان فيه البث الإذاعي والتلفزيوني حكراً على الدولة، ويرجع التحليل الى حقبة تقع قبل ظهور البث التلفزيوني الفضائي في العالم العربي. ومنذ ذلك الحين، تغير المشهد الإعلامي في العالم العربي، ونتيجة لذلك أضحت بعض الدول تصنف ضمن فئات مختلفة ومتعددة. ومع ذلك، وكما أشار كاي حافظ حديثاً، فإن التصنيف الذي استخدمه وليم رو يمكن توسيعه ليشمل شبكات التلفزة والإذاعة، وذلك على الرغم من التغير الكبير الذي طرأ على أشكال ملكية المحطات التلفزيونية وأنماط المشاهدة بعد انتشار البث التلفزيوني الفضائي. ويلفت الباحث الى قول محمد عايش إن هناك ثلاثة أنماط من الاتصال السياسي تهيمن حالياً على محطات التلفزة الفضائية العربية، وهذه الأنماط هي: محطات التلفزة التقليدية الخاضعة للسيطرة الحكومية، والقنوات التلفزيونية ذات المنحى الاصلاحي والخاضعة للسيطرة الحكومية، ومحطات التلفزة الليبرالية التي تدار على أساس تجاري. وقد لا يعكس هذا التصنيف التشكيلة الكاملة من الفضائيات التلفزيونية في العالم العربي، ولكنه يوفر تصنيفاً معيناً يمكن أن يساعدنا على فهم انتشار القنوات الفضائية الذي يبدو مستمراً الى ما لا نهاية له.

ويقول الباحث: إذا تم أخذ طبيعة الحياة السياسية في المنطقة في الحسبان، فإن المؤلف يذهب الى أن مجال الاتصال في العالم العربي لا يزال بعيداً عن الانفتاح. وفي الواقع فإن الإعلام العربي لا يزال مجالاً مغلقاً، ولا يزال بث المعلومات يخضع للسيطرة في العالم العربي. ويستشهد المؤلف بما أورده فياض كازان في كتاب له، فيقول: هناك تخوف من وسائل الإعلام، وهي تخضع للسيطرة بقدر الامكان، وفرضت حكومات عربية عديدة قيوداً صارمة على وسائل الإعلام، ولا يزال معظم تركيز الدول العربية وأولوياتها مقتصراً على التأثير المحلي لوسائل الإعلام، وهكذا فإن وسائل الإعلام تخضع للاستقطاب المتعمد بهدف السيطرة على الرأي العام في الكيانات المختلفة. ومن المثير للاهتمام ان بعض الحكومات العربية ظلت أكثر تساهلاً في ما يتعلق بتغطية الأحداث السياسية في المنطقة مقارنة بموقفها من تغطية السياسات الداخلية. وازداد الاهتمام بالأخبار المتعلقة بالمنطقة لأسباب منها العداءات القائمة منذ أمد طويل بين بعض دول المنطقة، وقدرة وسائل الإعلام في تغطيتها لتلك الأخبار على تجاوز رقابة الدولة.

وتعد قناة الجزيرة الفضائية نموذجاً لهذه الحالة، إذ يعدها كثيرون منبراً للأصوات المنشقة ولشخصيات المعارضة العربية. وغالباً ما يؤدي ظهور الشخصيات المعارضة في البرامج التلفزيونية لهذه القناة الى إثارة أزمات دبلوماسية بين قطر والدول العربية المعنية، التي تتهم القناة بالممارسة الصحافية غير المسؤولة. وتفسر هذه التوترات الإقليمية الى حد بعيد أسباب عدم تحقق الخطة التي وضعها وزراء الإعلام العرب لإطلاق قناة فضائية عربية، وتدل هذه الديناميات على غياب الرؤية ووجود فراغ إعلامي ملحوظ على المستوى الاقليمي.

ومن الواضح أن هناك غياباً للخطاب الإعلامي العربي الحقيقي، إذ لا يحتاج المرء إلا أن ينظر الى الافتقار الصارخ الى السياسة او الاستراتيجية المتعلقة بالقنوات الفضائية بالإضافة الى غياب التنسيق الاستراتيجي في هذا المجال خلال الفترة التي شهدت انتشار الفضائيات التلفزيونية بمعدل هائل، وفي الوقت الذي أضحى من الصعب فيه تجاهل تأثيرها.

ويضيف: يتبدى الوجه الآخر لهذا الوضع في أن القنوات التلفزيونية الفضائية العربية تخصص قدراً كبيراً من الاهتمام للأخبار السياسية، وتخدم جمهوراً لديه وعي سياسي ويقدر الأخبار السياسية ذات المصداقية، ويرغب في الحصول على حوارات سياسية ذكية ومتناغمة مع الأحداث. وبالطبع، فإن الوضع الجيوسياسي في الشرق الأوسط قد جعل السياسة مكوناً مهماً من مكونات البرامج الإعلامية.

من جهة أخرى، يدرس المؤلف أربع قوى بارزة في الوسط الإعلامي في الشرق الأوسط، ثم يتناول التغيرات التي طرأت على وضعها لاحقاً، وهذه القوى هي: الادعاء المصري بزعامة العالم العربي في المجال الإعلامي، وتركيز ملكية وسائل الإعلام الفضائية في أيدي السعودية، واستعادة لبنان مكانته كقوة إعلامية مهمة وإن كانت مجزأة بعض الشيء، وظهور مشروعات إعلامية جديدة وإخبارية.

وفي الواقع، فإن التصنيف الوارد سابقاً يعتبر جيداً، غير أنه ليس شاملاً كما ينبغي، وعلى النسق نفسه، فإن هذا الإرث الإعلامي يفهم في سياق ارتباطه بدول معينة، سواء كانت مصر او لبنان او السعودية او قطر، غير ان الريادة الإعلامية التي حققتها هذه الدول لا تضاهي دائماً وزنها السياسي الاقليمي، او قدرتها على التأثير في مجريات الحياة السياسية في المنطقة.

الأمر الأكثر أهمية هو ان الانعكاسات السياسية للشبكات الإعلامية الجديدة لم تتضح تماماً حتى الآن، وعلى الرغم من أن العديد من القنوات الناشئة مملوك لجهات خاصة، فإن هذه الملكية الخاصة لم تضمن بالضرورة تنوع المحتوى المطروح للمشاهد او المستمع. وفي الواقع، فقد تحول البث التلفزيوني من الاحتكار الحكومي العام الى الاحتكار الخاص، ولكن بهامش ضيق نسبياً من الحرية.

فضائيات

من الزمخشري الى هيكل: موريتانيا تعاني لعنة الجغرافيا والحرارة بعاصمتها مقديشو

توفيق رباحي*

■ ما كنت اتوقع كل هذا الكبرياء لدى الموريتانيين قبل «واقعة» الاستاذ حسنين هيكل ووصفه موريتانيا بانها دولة هامشية تعاني من لعنة الجغرافيا. غير ان ردود الفعل التي وصلتني تعقيبا على ما كتبت الاسبوع الماضي بهذه الزاوية عن «الواقعة»، والمقالة الجميلة لحمد عبد الرحمن محمد فال، رئيس تحرير صحيفة «الصدى» الموريتانية («القدس العربي» 6 تموز ـ يوليو 2006 ص 21) ردا على الاستاذ هيكل، دفعتني الى اعادة النظر في بعض احكامي الجاهزة. فانا ايضا كنت من ضحايا ان موريتانيا دولة منسية وسكانها «كم» غير مؤثر ينسحب عليهم قول «اذا تأخر لا يُنتظر واذا حضر لا يُستشار».

اكتشفت من خلال الردود ان الاستاذ هيكل ليس في «زلّته» الاولى مع موريتانيا. واكتشفت ايضا ان حنق الموريتانيين كبير على «الاشقاء» العرب الذين لا يتذكرون موريتانيا الا عند حدوث انقلاب او في سياق ذكر العلاقات التي تقيمها اسرائيل مع دول عربية.

ان يسأل مسؤول عربي مواطناً موريتانياً في مطار ما كيف هو الجو عندكم في مقديشو؟ فهذه اهانة للسائل لا للموجَه اليه السؤال. وعندما يسأل مثقف عربي رجلا موريتانيا هل «شنقيط» هو اسم وجبة غذائية في موريتانيا، فهذه ذروة الجهل والذي يجب ان يستحي هو السائل، ولا يحق ابدا للمستمع ان يشعر بعقدة او حرج.

نُقل عن الرئيس انور السادات انه قال بسخرية عندما سمع ان موريتانيين تظاهروا في نواكشوط احتجاجا على زيارته القدس اواخر العام 1977: «فيه دويلة كده في جنوب الوطن العربي أو شمال افريقيا.. مش عارف بالضبط فين، ناسها تظاهروا». ونُقل عن الرئيس حسني مبارك قوله باستهزاء عندما سألوه عن وزير خارجية ليبيا الاسبق، منصور الكيخيا، اختطف على هامش مؤتمر حول حقوق الانسان بالقاهرة العام 1993: «الكيخيا.. ده مين ده؟ من سورية؟». والكيخيا ليس بائع فواكه مغمورا في سوق ليبية، بل وزير خارجية ثم مبعوث بلاده لدى الامم المتحدة. ولا أحسب ان الامر فات «الريّس» مبارك.

***

لكن، اذا اردنا الحقيقة فوق هذه التفاصيل، وفيها عزاء للموريتانيين، فهي ان منطقة المغرب العربي (شمال افريقيا، حسب الممثل المصري يوسف شعبان وكثير من المشارقة) كلها هامشية وتعاني لعنة الجغرافيا، بالمفاهيم المشرقية، حتى ان الفرد المغاربي مضطر للدفاع عن عرقه وانتمائه ولغته واثبات انه اهل لها.

لا اعرف كم عدد الصحافيين والمثقفين المغاربيين الذين استُقبلوا بدور نشر واعلام عربية وقيل لهم باستغراب «ما شاء الله.. لغتك العربية كويسة»، مثلما تقال للاسيويين والاوروبيين الذين يذهبون الى الازهر لتعلم الفقه واللغة العربية فيتعلمون اللهجة المصرية!

اذكر ان الخبر العاجل «سماع اصوات اطلاق نار قرب القصر الرئاسي بنواكشوط» الذي قرأته في الاسبوع الاول من حزيران (يونيو) 2003 اسفل شاشة «الجزيرة» القطرية، استنفرني. نواكشوط؟ اين هذه.. آه جارتنا موريتانيا ورئيسها معاوية ولد الطايع. كان عليّ أن اشغّل ذاكرتي قليلا كأن موريتانيا نزلت الى الجزء النائم فيها. لهذا قلت آنفا انني ايضا من ضحايا «موريتانيا دولة هامشية».

وعندما انتهت المحاولة الانقلابية بالفشل، وبعد يومين او ثلاثة من التقارير والمراسلات، ادرنا ظهورنا، وولّت «الجزيرة» والقنوات الاخرى وجهها صوب المشرق القريب الذي لا يعاني لعنة جغرافيا.

وكأن الانقلابيين اخذوا استراحة المحارب فعادوا بعد 14 شهرا وعادت معهم موريتانيا الى واجهة الاخبار باخبار انقلاب اخر ـ ناجح هذه المرة. اذكر ان في انقلاب 3 اب (اغسطس) الماضي، بثت «سكاي نيوز» البريطانية الخبر مرفقاً بصورة ثابتة لخريطة موريشيس (يسميها الفرنكوفونيون جزر موريس) التي تقع في الطرف الاخر بجنوب شرق القارة الافريقية ولا تربطها بموريتانيا اية علاقة.

ومثلما اتوقع ان نواكشوط اقرب لفظا الى مقديشو فالتبس الامر على المثقف العربي المذكور اعلاه، اقول ان موريشيس اقرب بالانكليزي الى موريتانيا فالتبس الامر على «سكاي نيوز».

هل في هذا عذر؟ ابدا لان الامر يتعلق بجهل مؤذ كونه نابع عن اسباب بينها الاحتقار.

يجب ان نعترف ان موريتانيا بالذات (والمغرب العربي عموما) تعاني قليلا من لعنة جغرافيا، فالقدس تقع شرقا، كذلك الحرمان، والازهر، والباب العالي (تركيا) وعاصمة الخلافة، وفلسطين.. حتى افغانستان والعراق!

لكن ما الذي يمنع بعضهم من النزول ارضا بعض الشيء والالتفات غربا؟ فهناك مغرب عربي ثري بثقافة متنوعة نادرة. هناك الاندلس، المحيط الاطلسي، اوروبا التي ركبتنا جميعا قرونا من الزمن، وسيدتنا امريكا التي تركبنا حاليا. هنا وجب الاستدراك، فامريكا واوروبا يُنظر اليهما من المشرق لكن بتعالٍ عن المغرب كمن ينظر الى الجهة الاخرى من الجسر ويرفض ان يرى ما في النهر.

اذاً، نحن امام تغييب مقصود تتوزع اسبابه بين الاهمال والجهل بالمنطقة.

تغييب افرز شعورا بالغبن عبّرت عنه صحف جزائرية هللت لبث «الجزيرة مباشر» خطاب الرئيس بوتفليقة امام قادة الجيش في الاحتفالات بيوم الاستقلال الاربعاء الماضي. اوشكت تلك الصحف ان تشكر «الجزيرة» على الالتفاتة، بالرغم من بعض التفاصيل المهملة عمدا ومنها ان الجزائر هي التي منعت القناة القطرية من ان يكون لها مكتب او مراسل فوق اراضيها، وبالرغم من ان «الجزيرة مباشر» تعاني احيانا ولا تجد ما تبث فتقع في «املأ الفراغ».

ربما سيخفف من اثر هذا التغييب ان «الجزيرة» افتتحت لها مكتبا اقليميا بالرباط من شأنه ان يغطي كل المنطقة، بما في ذلك موريتانيا، ما لم تقع في المجاملات (للدول والحكومات) نظير الوجود والاستمرار. لكن هذا نقاش اخر قد يطول.

***

سأسمح لنفسي بنقل الموضوع الى مجال اوسع ربما فيه عزاء للموريتانيين وكل المغاربيين. فموضوع التهميش والتجاهل ليس جديدا، بل ورد مع ابن خلدون وابن عطية الذي لو ظهر في المشرق لفاقت شهرته الزمخشري.

اخشى اننا، كعرب ومسلمين في هذه المنطقة، مجبولون على العنصرية واحتقار الاخر، بدءا من الاقربين ثم اتساعا الى الاعراق والاجناس والاديان الاخرى.

التقيت شابا عربيا في لندن بعدما افتقدت اثره طويلا. تبادلنا التحايا ثم سألني عن اخباري فقلت لا زلت بعملي في نفس المكان لكنني اسكن في المكان الفلاني. بدر منه رد فعل يشبه الاشمئزاز مصحوبا بـ«تلك المنطقة فيها هنود كثيرون» كأنه نمساوي او نرويجي!

ومثلما هي ظاهرة موجودة في بلدي الجزائر، اتوقع انها موجودة في دول عربية اخرى. فسكان العاصمة يسخرون من سكان المدن الاخرى، وسكان تلك المدن يسخرون من سكان المدن الاصغر والبلدات، وسكان هاته يسخرون من سكان القرى وهؤلاء لهم نصيب ايضا فيسخرون من سكان المداشر النائية.

صحيح ان هذا النوع من السخرية موجود في ثقافات اخرى. فهنا الانكليز يحيلون طُرفهم ونكاتهم الى الايرلنديين، والفرنسيون يحيلونها الى البلجيكيين، والامريكيون الى المكسيكيين. لكن عندنا تأخذ السخرية طابع الجد والحدة فتجرح.

اخر كلمة: «مصر تشيد بالاستفتاء على التعديل الدستوري في موريتانيا». هذا الخبر نقلته وكالة الانباء القطرية يوم 4 الجاري وجاء فيه «أشادت وزارة الخارجية المصرية بعملية الاستفتاء على تعديل الدستور فى جمهورية موريتانيا. وأعرب المتحدث باسم وزارة الخارجية المصرية فى تصريح له عن التهاني للشعب الموريتاني وحكومته الانتقالية على ذلك الانجاز الهام على طريق الاصلاح الديمقراطي، واعرب عن الامل فى ان يكون الاستفتاء بداية للمزيد من التطور والنمو والازدهار لشعب موريتانيا».

لا اعرف ان كان على الموريتانيين ان يهللوا لهذا التنازل من حكومة «ام الدنيا» او يتبرأوا منه.

انه خبر ملغوم، كما نقول في دنيا الصحافة، وعلى الموريتانيين الحذر.

---

* كاتب من اسرة «القدس العربي»
toufik@alquds.co.uk

وارضيات